جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

الإشاريات التداولية في سورة البلد، ودورها في بناء المعنى
دراسة بلاغية
في ضوء التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي
المتوفى ٢٠١٠م

إعداد

د/ علي عبد الرحيم محمود عبد الهادي

مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بجرجا

(العدد السابع والثلاثون)

(الإصدار الرابع .. نوفمبر)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

الإشاريات التداولية في سورة البلد، ودورها في بناء المعنى

دراسة بلاغية في ضوء التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي المتوفى ٢٠١٠م

الاسم: على عبد الرحيم محمود عبد الهادي

قسم البلاغة والنقد –كلية اللغة العربية بجرجا –جامعة الأزهر– مصر

البريد الإلكتروني : AliAbdElHadi.el.8.7@azhar.edu.eg

الملخص:

تقوم العلامات اللغوية في السياقات التعبيرية بدورها في تحقيق الملامح الدلالية، والوصول إلى الغايات الإيحائية، والتي تعد الإشاريات التداولية عنصرًا من عناصرها، باعتبارها وسيلة من وسائل الربط بين الجمل، والعبارات، فهي أدوات تعبيرية، ووسائل أسلوبية لا تظهر معانيها الدلالية إلا من خلال ما يتصل بها من عبارات، وما يحيط بها من كلمات، وذلك في شتى صورها الشخصية والزمانية، المكانية والاجتماعية، وقد اختارت الدراسة التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، لكونه تفسيرًا حديثا قد عاصر انتشار التداولية، وصيرورتها مدرسة نقدية، تعتبر العلامات اللغوية أصل الملامح الإيحائية، ومن ثم جاءت الدراسة تحت عنوان (الإشاريات التداولية في سورة البلد ، ودورها في بناء المعنى دراسة بلاغية في ضوء التفسير الوسيط للشيخ : محمد سيد طنطاوي المتوفى(٢٠١٠م)، وقد كان اختيار سورة البلد لاشتمالها على كثير من الإشاريات التي كان لها دورها في تقرير المعاني، وترسيخ الأفكار لاسيما في مستهل الدعوة التي لاقت تعنتًا ، وإنكارًا كأنه أحوج إلى هذه الإشاريات بما تحققه من استحضار للمشاهد بمختلف أشكالها أشخاصًا وأماكن، أزمنة وأحوالًا، وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي في ضوء ما ذكره العلامة الأستاذ الدكتور: محمد سيد طنطاوي، والذي حاولت من خلاله الوقوف على أسرار هذه الإشاريات، وما أسهمت به في تحقيق المعنى، ونشر الدعوة.

الكلمات المفتاحية :الإشاريات ، سورة ، البلد ، المعنى ، التفسير ، الوسيط.

Pragmatics signs in Surat Al-Balad, and their role in constructing meaning A rhetorical study In light of the intermediate interpretation of Sheikh Muhammad Sayyid Tantawi, who died in 2010

Ali Abdul Raheem Mahmoud Abdul Hady
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language in Girga - Al-Azhar University - Egypt
Email:AliAbdElHadi.el.8.7@azhar.edu.eg

Abstract:
Linguistic signs in expressive contexts play a role in achieving semantic features and reaching suggestive goals, of which pragmatic signs are an element, as they are a means of linking sentences and phrases. They are expressive tools and stylistic means whose semantic meanings do not appear except through the phrases connected to them and the words surrounding them, in all their personal, temporal, spatial and social forms. The study chose the intermediate interpretation of Dr. Muhammad Sayyid Tantawi, as it is a modern interpretation that has witnessed the spread of pragmatics and its becoming a critical school which considers linguistic Signs the origin of suggestive features, and then the study came under the title (Pragmatic signs in Surat Al-Balad, and their role in constructing meaning, a rhetorical study in light of the intermediate interpretation of Sheikh: Muhammad Sayyid Tantawi, who died (2010 AD), and Surat Al-Balad was chosen because it includes many signs that played a role in determining meanings and consolidating ideas, especially at the beginning of the da'wah, which was met with obstinacy and denial, as if it was in greater need of these signs with what they achieve in evoking scenes in their various forms, people and places, times and conditions, and in this study I relied on the analytical method in light of what was mentioned by the scholar, Professor Dr.: Muhammad Sayyid Tantawi, through which I tried to stand on the secrets of these signs, and what they contributed to in realizing the meaning and spreading of Islam.

KeY words : Sign, Surat , Al-Balad ,Rhetorical,Intermediate , Nterpretation

المقدمة

تقوم العلامات اللغوية في السياقات التعبيرية بدورها في تحقيق الملامح الدلالية، والوصول إلى الغايات الإيحائية، والتي تعد الإشاريات التداولية عنصرًا من عناصرها، باعتبارها وسيلة من وسائل الربط بين الجمل، والعبارات، فهي أدوات تعبيرية، ووسائل أسلوبية لا تظهر معانيها الدلالية إلا من خلال ما يتصل بها من عبارات، وما يحيط بها من كلمات، وذلك في شتى صورها الشخصية والزمانية، المكانية والاجتماعية، وقد اختارت الدراسة التفسير الوسيط للدكتور/ محمد سيد طنطاوي، لكونه تفسيرًا حديثا قد عاصر انتشار التداولية، وصيرورتها مدرسة نقدية، تعتبر العلامات اللغوية أصل الملامح الإيحائية، ومن ثم جاءت الدراسة تحت عنوان (الإشاريات التداولية في سورة البلد ، ودورها في بناء المعنى دراسة بلاغية في ضوء التفسير الوسيط للشيخ : محمد سيد طنطاوي المتوفى ٢٠١٠م)، وقد كان اختيار سورة البلد لاشتمالها على كثير من الإشاريات التي كان لها دورها في تقرير المعاني، وترسيخ الأفكار لاسيما في مستهل الدعوة التي لاقت تعنتًا ، وإنكارًا كأنه أحوج إلى هذه الإشاريات بما تحققه من استحضار للمشاهد بمختلف أشكالها أشخاصًا وأماكن، أزمنة وأحوالًا ، والتي لا أحسب أحدًا- حسب اجتهادي- قد سبقني إلي كشف كنهها، والوقوف على أسرارها.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة على المنهج التحليلي في ضوء ما ذكره العلامة الأستاذ الدكتور: محمد سيد طنطاوي، والذي حاولت من خلاله الوقوف على أسرار هذه الإشاريات، وما أسهمت به في تحقيق المعنى، ونشر الدعوة.

وقد اقتضت طبيعة البحث هذا أن يأتي في أربعة مباحث تسبقها مقدمة وتمهيد، وتعقبها خاتمة وفهارس على النحو التالي:

المقدمة: وذكرت فيها أسباب اختيار الموضوع، والمنهج الذي سرت عليه، وخطة البحث.

التمهيد: وعرضت فيه لمفهوم التداولية ومحاورها، ثم ذكرت سبب تسمية سورة البلد، ومقصودها، وعرضت ترجمة للدكتور/محمد سيد طنطاوي، وتعريفًا بتفسيره.

المبحث الأول: الإشاريات الشخصية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.

المبحث الثاني: الإشاريات الزمانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.

المبحث الثالث: الإشاريات المكانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.

المبحث الرابع: الإشاريات الاجتماعية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.

الخاتمة: واشتملت على أهم النتائج، وأبرز التوصيات التي توصلت إليها الدراسة.

الفهارس: واشتملت على:

١–فهرس المصادر والمراجع

٢–فهرس الموضوعات

وبعد

فهذا بحثي فإن أك قد اهتديت فيه إلى الصواب فما أسعدني به مظهراً من مظاهر توفيق الله، وفيضاً من كرمه ورضاه، وإن كانت الأخرى فحسبي أن جاء من حيث قصدت الإحسان.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[١]

١ –سورة هود من الآية (٨٨)

التمهيد

التداولية مفهومها، ومحاورها:

تدور مادة (دول) في كتب اللغة حول معاني الغلبة، والتحول من مكان إلى مكان، فقد ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس: " الدال والواو واللام أصلان: أحدُهما يدلُّ على تحوُّل شيءٍ من مكان إلى مكان، والآخر يدلُّ على ضَعْفٍ واستِرخاء، أمَّا الأوَّل فقال أهل اللغة: انْدَالَ القومُ، إذا تحوَّلوا من مكان إلى مكان. ومن هذا الباب تداوَلَ القومُ الشّيءَ بينَهم: إذا صار من بعضهم إلى بعض، والدَّولة والدُّولة لغتان. ويقال بل الدُّولة في المال والدَّولة في الحرب، وإنَّما سُمِّيا بذلك من قياس الباب؛ لأنّه أمرٌ يتداوَلُونه، فيتحوَّل من هذا إلى ذاك، ومن ذاك إلى هذا، وأمَّا الأصل الآخَر فالدَّوِيلُ من النَّبْت: ما يَبِس لعامِهِ. قال أبو زيد: دال الثَّوبُ يَدوُل، إذا بَلِيَ. وقد جعل وُدُّهُ يَدُول، أي يبلى. ومن هذا الباب انْدَالَ بَطْنُه، أي استَرخَى"[١]

وقد جعل بعض أهل اللغة الفعل (دال) قسيما للفعل (دار) الذي من دلالته نقل الشيء وجريانه، نحو قولنا: دار على الألسن أي جرى عليها، وخلصوا إلى أن المعنى الذي يحمله هو التواصل، ومقتضى التداول.[٢]

يقول ابن منظور: "ودالَت الأَيامُ أَي دارت والله يُداوِلها بين الناس، وتَداولته الأَيدي أَخذته هذه مرَّة وهذه مرَّة"[٣]

١- معجم مقاييس اللغة- لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا- ت: عبد السلام محمد هارون - ٣١٤/٢ (دول)-ط: دار الفكر - بيروت -١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٢- ينظر: تجديد المنهج في تقويم التراث-طه عبد الرحمن-ص٢٤٤-ط: المركز الثقافي العربي-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية.

٣- لسان العرب-تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري-٢٥٤/١١ (دول)- ط: دار صادر-بيروت-الطبعة الأولى.

وهذا هو حال اللغة فهي متحولة من حال لدى المتكلم إلى حال أخرى لدى السامع، ومتنقلة بين الناس يتداولونها بينهم.[١]

أما عن الاصطلاح فيكاد يجمع الكثيرون على تشعب دائرة اهتمامات التداولية لكونها تمثل همزة وصل بين حقول معرفية كثيرة مما جعل حصر أهدافها، وضبط مناهجها أمرًا صعبًا، فالتداولية" ليست علمًا لغويًا محضًا بالمعنى التقليدي، يكتفي بوصف، وتفسير البنى اللغوية، ويتوقف عند حدودها، وأشكالها الظاهرة، ولكنها علم جديد للتواصل يدرس الظواهر اللغوية في مجال الاستعمال، ويدمج مشاريع معرفية متعددة في دراسة ظاهرة التواصل اللغوي وتفسيره"[٢]، فهي تُعنى "بدراسة الكلام وما يتعلق به من سياق لغوي وغير لغوي؛ لتحقيق كمال الاتصال بين المتكلم (المرسل)، والمستمع (المستقبل)"[٣]، وتمتد علاقاتها إلى علوم شتى منها "الفلسفة التحليلية ممثلة في فلسفة اللغة العادية، ومنها علم النفس المعرفي، ومنها علوم التواصل، ومنها اللسانيات بطبيعة الحال"[٤]

وبناء عليه تنوعت تعريفات التداولية فقد عرفها موريس بأنها" العلم الذي يعالج العلاقة بين الأدلة ومؤوليها[٥]، في حين اعتبرها فان جاك تخصصًا يتناول

١- التداولية في الدراسات النحوية- د. عبد الله جاد الكريم-ص١٦-ط: مكتبة الآداب- القاهرة- ٢٠١٤م

٢-التداولية عند علماء العرب – د. مسعود صحراوي- ص١٦- ط: دار الطليعة -بيروت- لبنان- الطبعة الأولى-٢٠٠٥م.

٣-التداولية في الدراسات النحوية- د. عبد الله جاد الكريم-ص٢٤

٤- التداولية في الدراسات النحوية- د. عبد الله جاد الكريم-ص٢٦

٥- التداولية في الدراسات النحوية- د. عبد الله جاد الكريم-ص١٨

اللغة بوصفها ظاهرة خطابية، وتبليغة، واجتماعية في الوقت نفسه"[١] وهو ما سوغ إلى تعريفها بأنها "دراسة الاستعمال اللغوي (LANGUAGE USAGE) الذي يقوم به أشخاص لهم معارف خاصة، ووضعية اجتماعية معينة" ، والتي تكون بوقوفها على المبادئ التي تمكننا من إدراك غرابة بعض الجمل، أو عدم مقبوليتها، أو لحنها، أو عدم ورودها في لغة المتكلم، هذا فضلًا عن أنها مع اهتمامها بدراسة ظواهر بنية الخطاب اللغوي بما اشتمل عليه من تضمينات، واقتضاءات، أو ما يسمي بأفعال اللغة SPEACH ACTS، تهتم بالسياق وذلك بما تقوم به من "دراسة للعلاقات بين اللغة والسياق، أو هي دراسة كفاية مستعملي اللغة في ربطهم لها بسياقاتها الخاصة"[٢]

ومن خلال هذه المفاهيم يتجلى للدارس أنها تدور بين الدلالة والاستعمال، وأنه يندرج تحت الاستعمال عناصره من متكلم ومستمع، ومقاصد ونوايا، وسياق ومقام، وأنها تتضافر جميعها في إبراز الدلالة المقصدية التي تُجنِّب تفلت المعني وتشظيه.[٣]

فالفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس حين استخدم مصطلح التداولية عام ١٩٣٨م، وعده علما ثالثًا لأحد فروع علم السيمائية الثلاثة (علم التركيب- علم الدلالة- التداولية) كأنه يريد أن ينتقل به من الخاص إلى العام، وذلك حيث تتشابك العلامات اللغوية فيما بينها وفق نظامها الخاص بها، ثم تأتي مرحلة

١- التداولية في الدراسات النحوية-د. عبد الله جاد الكريم-ص١٨

٢-ينظر: الأسس الإبسمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه-لإدريس مقبول- ص ٢٦٣،٢٦٤-عالم الكتاب الحديث-اربد- الأردن- الطبعة الأولى-٢٠٠٦م، ومفهوم التداولية من المنشأ الغربي إلى المحضن العربي-قراءة في المصطلح والمفهوم- د. عمر بوقمرة-ص ٤٣-مجلة المدونة-٢٠١٤م

٣- ينظر: مفهوم التداولية من المنشأ الغربي إلى المحضن العربي ص٤٣

الإحالة على مراجعها، فلولا التركيب لما حدثت إحالة؛ وهذه الأخيرة تبقى دلالات فضفاضة ومعاني واسعة، حتى إذا انتقلنا بها إلى إطارها التداولي حصلت المقصدية وزالت الاحتمالية، وهذا يؤكد أن العلوم الثلاثة هذه هي في حقيقتها ليست مستغنية عن بعضها [١]، شأنها شأن غيرها من العلوم التي تعتمد المنهج التكاملي، ودوره في ترسيخ المعاني في الأذهان، وتقريبها من النفوس.

وللتداولية –كما لغيرها من العلوم والمعارف– محاور تدور في فلكها، وأنماط تحكي عنها، ومظاهر تبرز في زيها، وهذه المحاور، وهذه الأنماط تتمثل فيما يأتي:

أولًا: الإشاريات.

فقد وردت الإشارة في كتب اللغة بمعنى الإيماءة والدلالة ففي لسان العرب:" ... وأَشار إِليه وشَوَّر أَومَأَ يكون ذلك بالكفِّ والعين والحاجب... ، وأَشار عليه بأَمْرِ كذا أَمَرَه به وهيَ الشُّورَى والمَشُورَة بضم الشين....، وأَشار الرجل يُشِيرُ إِشارَةً إِذا أَوْمَأَ بيديْه، ويقال شَوَّرْت إِليه بِيَدِي وأَشرت إِليه أَي: لَوَّحْت إِليه وأَلَحْتُ أَيضاً، وأَشارَ إِليه باليَدِ أَوْمأَ، وأَشارَ عليه بالرَّأْيِ، وأَشار يُشِير إِذا ما وَجَّه الرَّأْي"[٢]، ويقصد بها في دراسة التداولية– كما سيأتي– أدوات الربط التي تربط بين أجزاء الجملة، وبينها وبين مجموعة من الجمل، وذلك باعتبار أن النص يتألف من عدد من العناصر التي تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام، والتماسك بين تلك العناصر، والتي تتمثل فيما يأتي:

١– ينظر: مفهوم التداولية من المنشأ الغربي إلى المحضن العربي ص٤٣

٢– لسان العرب ٤٣٧/٤ (شور)

١- الإشاريات الشخصية.

وتتمثل الإشاريات الشخصية في الضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب والغائب، سواء أكانت متصلة أم منفصلة، إلى جانب أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة التي يوظفها السياق في تحقيق غاياته.[١]

٢- الإشاريات الزمنية.

وتمثلها ظروف الزمان بصورة عامة، فإذا لم يعرف الزمن التبس الأمر على المتلقين، وقد تدل العناصر الإشارية على الزمان الكوني والنحوي.[٢]

٣- الإشاريات المكانية.

وتمثلها بصورة عامة ظروف المكان، ويعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للخطاب أو للمخاطب والسامع، ولعل أكثر الإشاريات المكانية الواضحة هي: هذا، وذاك، وهنا، وهناك، وتحت...[٣]

١- ينظر: استراتيجيات الخطاب –مقاربة لغوية تداولية- عبد الهادي بن ظافر الشهري- ص٨٢- ط: دار الكتاب الجديد المتحدة-بيروت –لبنان-٢٠٠٤م، وتداولية الإشاريات عند ابن زيدون (قصيدة" أثرت هزبر الشرى إذ ربض " أنموذجا – د. حنان بنت علي عسيري- ص٢٣٩-ط: مجلة كلية دار العلوم-العدد ١٤١-٢٠٢٢م

٢- ينظر: التداولية: نشأة المفاهيم والتصورات-أ. مريم مزايتي – ص٢٧٥- ط: مجلة إشكالات في اللغة والأدب- العدد الثامن-الجزائر- ٢٠١٥م

٣- ينظر: التداولية: نشأة المفاهيم والتصورات ص٢٧٥

٤- الإشاريات الاجتماعية.

وهي ألفاظ أو عبارات تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين، والمخاطبين من حيث هي علاقة رسمية، أو غير رسمية، أو علاقة حميمية أو غير حميمية أو غير ذلك من مستويات العلاقة.[١]

ثانيًا: الافتراض المسبق.

ويطلق عليه (الإضمارات التداولية) وهو عبارة عن المعطيات، والافتراضات السابقة التي تفهم من سياق الكلام، أو يتضمنها التركيب، وتمثل الخلفية المعرفية لأطراف الحوار[٢]، ففي قولنا مثلا أغلق النافذة أو لا تغلق النافذة خلفية أو افتراض مسبق مضمونه أن هناك نافذة مفتوحة[٣]، ومثاله من القرآن الكريم كما يفسره الشيخ الشعراوي- قوله- تعالى-:{قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ}[٤]، فقد تضمن قولها أنها رأت منه قوة كبيرة وصفته بها أمام والدها، وطلبت استئجاره، وأنه أمين لما رأت من سلوكه، وكشف قولها عن إعجابها بهاتين الخصلتين فيه، فكنَّت عن الإعجاب بعرضها على أبيها، وقد فهمت حاجته إلى الأجر لما رأت من حاله[٥]، وذكر الطبري أن قوله فيما حكى القرآن عنه:{ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا

١- ينظر: التداولية: نشأة المفاهيم والتصورات ص٢٧٥، ٢٧٦

٢-ينظر: النظرية البراجماتيه اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ ـ د. محمود عكاشة –ص ٨٥-ط: مكتبة الآداب- القاهرة-٢٠١٣م.

٣-ينظر: التداولية عند علماء العرب-د. مسعود صحراوي- ص٣١

٤ -سورة القصص الآية (٢٦)

٥- ينظر: تفسير الشعراوي- ١٧/ ١٠٩٠٨، ١٠٩٠٨-ط: أخبار اليوم – قطاع الثقافة والكتب والمكتبات- ١٩٩١م

أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}[١] يتضمن كونه محتاجًا، وأنه فعل ذلك –مع دافع النخوة والشهامة– تعريضا لهما لعلهما تطعماه مما به من شدة الجوع[٢]، وهذه افتراضات مسبقة لا يصرح أو يفصح عنها المتكلمون، وإنما تشكل خلفية التبليغ الضرورية لنجاح العملية التواصلية فالمتكلم يوجه حديثه إلى السامع على أساس مما يفترض سلفًا أنه معلوم له[٣]

ثالثًا: الأقوال المضمرة.

الأقوال المضمرة ترتبط بوضعية الخطاب ومقامه، فهي على العكس من الافتراض المسبق الذي يحدد على أساس معطيات لغوية، فـ" القول المضمر هو كتلة من المعلومات التي يمكن للخطاب أن يحتويها، ولكن تحقيقيها في الواقع يبقي رهن خصوصيات سياق الحديث"[٤]، ومثال ذلك قول القائل: إن السماء ممطرة، فالسامع لهذا الملفوظ قد يعتقد أن القائل أراد أن يدعوه إلى:

- المكوث في بيته.
- الإسراع إلى العمل حتى لا يفوته الموعد.
- الانتظار والتريث حتى يتوقف المطر.
- عدم نسيان مظلته عند الخروج.

١- سورة القصص من الآية (٢٤)

٢-ينظر: تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) -لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري-ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي- ٢١٥/١٨- ط: دار هجر- القاهرة- الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

٣-ينظر: مدخل إلى اللسانيات التداولية- ترجمة: محمد يحياتين-ص٣٤-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ١٩٩٢م.

٤- ينظر: التداولية عند علماء العرب- د. مسعود صحراوي- ص٣٢

وقائمة التأويلات مفتوحة مع تعدد السياقات، والطبقات المقامية التي ينجز ضمنها الخطاب، والفرق بينه، وبين الافتراض المسبق أن الأول وليد السياق الكلامي، والثاني وليد ملابسات الخطاب.[١]

رابعًا: الاستلزام الحواري.

يعرف بالمعنى المستفاد من السياق، بمعنى أن من الناس من يقصد ما يقول، ومنهم من يقصد عكس ما يقول، ومنهم من يقصد أكثر مما يقول وهو ما أشار إليه الفيلسوف غريس بأن التواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام هو مبدأ التعاون، وبمسلمات حوارية، وبسلامة القول، قبوله من قائله، وملاءمته لمستوى الحوار، فبعض جمل اللغات الطبيعية في بعض المقامات تدل على معنى غير معنى تركيبها اللفظي.[٢]

ويتضح ذلك من خلال الحوار بين الأستاذين(أ) و(ب):

الأستاذ (أ): هل الطالب(ج) مستعد لمتابعة دراسته الجامعية.

الأستاذ(ب): إن الطالب(ج) لاعب كرة ممتاز.

فقد لاحظ غرايس أننا إذا تأملنا الشحنة أو الكم الدلالي لإجابة الأستاذ(ب) وجدنا أنها تدل على معنيين اثنين في نفس الوقت، أحدهما حرفي وهو أن الطالب (ج) من لاعبي الكرة الممتازين، وآخر مستلزم وهو أن الطالب المذكور ليس مستعدًا لمتابعة دراسته في الجامعة.[٣]

وقد قسم غرايس الدلالة التركيبية إلى معاني صريحة ومعاني ضمنية، فالمعاني الصريحة تحتوي على محتوى قضوي وقوة إنجازية حرفية، والمعاني

١- ينظر: التداولية عند علماء العرب–د. مسعود صحراوي– ص٣٢

٢ – ينظر: النظرية البراجماتيه اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ ــ د. محمود عكاشة –ص ٨٧

٣- ينظر: التداولية عند علماء العرب–د. مسعود صحراوي– ص٣٣

الضمنية تشير إلى معان عرفية، ومعان حوارية استلزامية[١]، ومنه في الإنجليزية (Boreal the ice) المعنى المباشر (الحرفي) اكسر الثلج، والمعنى المجازي (مهد الأمور أو مهد الطريق لأمر ما)، وبعض التراكيب لا يجوز أن تحمل على معناها الحرفي أو المباشر. [٢]

خامسًا: الفعل الكلامي.

هو كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي إنجازي تأثيري ... فهو فعل يطمح إلى أن يكون تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب، اجتماعيًا أو مؤسساتيًا، ومن ثم إنجاز شيء ما[٣]، فهو يتحقق في الواقع عندما يخبر المتكلم عن شيء أو يصرح تصريحًا ما، أو يأمر أو ينهى أو يلتمس، أو يعد أو يشكر أو يعتذر، أو يدعو أو يحمد الله- تعالى-[٤]، وهو مما لا يحكم عليه بصدق أو كذب.

وقد لا حظ أوستين أنه توجد ثلاث خصائص للفعل الكلامي الكامل:

١-إنه فعل دال

٢- إنه فعل إنجازي (أي: إنه ينجز الأشياء الأفعال الاجتماعية بالكلمات)

٣- إنه فعل تأثيري (أي: يترك أثارًا معينة في الواقع خصوصًا إذا كان فعلًا ناجحًا)

١- ينظر: التداولية عند علماء العرب-د. مسعود صحراوي- ص٣٤،٣٥

٢- ينظر: التداولية: نشأة المفاهيم والتصورات ص٢٧٨

٣- ينظر: التداولية عند علماء العرب-د. مسعود صحراوي- ص٤٠

٤- ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب-تأليف: د. محمد محمد يونس علي- ص ٣٤-ط: دار الكتاب الجديد المتحدة- بنغازي- ليبيا- الطبعة الأولى-٢٠٠٤م.

ويقوم كل فعل كلامي على مفهوم القصدية باعتبارها الوظيفة والهدف من إنشاء النص، فالنصوص مرتبطة بالقصد، ومن غيرها لا يوجد قصد[١]، إذ إن كل فعل قولي أو نتاج لساني يفترض فيه وجود نية للتوصيل والإبلاغ، ومن هنا تتحدد أهمية القصد في عملية الإفهام، والتواصل التي لا تتحقق إلا بوقوع المخاطب على قصد المتكلم من خلال التشكيل اللغوي الذي يضم العناصر المنطوقة، والقرائن التي تضم عناصر منطوقة، وأخرى غير منطوقة[٢]، ومن ثم عدت القصدية قيمة تداولية نصية حوارية، وأصبح مفهومها العام، وشبكتها المفاهيمية من أبرز المفاتيح المنهجية في الدراسات اللسانية النصية[٣].

سورة البلد: تسميتها، ومقصودها.

سميت سورة البلد بهذا الاسم؛ لأن الله –سبحانه وتعالى– أقسم في فاتحتها بالبلد الحرام(مكة) الذي شرفه الله بالبيت العتيق، وجعله قبلة المسلمين، تعظيمًا لشأنه.[٤]

ومقصودها: نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه الديان، وذلك هو معنى اسمها، فإن من تأمل أمان أهل الحرم، وما هم فيه من الرزق والخير، على

١– ينظر: أسس لسانيات النص– ما رغوت هينان، وفولفنغ هاينمان– ترجمة: موفق محمد المصلح – ص ١٥٨– دار الشؤون الثقافية– بغداد–الطبعة الأولى، ومحاضرات في لسانيات النص – د. جميل حمداوي ص١٠٧،١٠٨– ط: الألوكة.

٢– ينظر: دراسات لغوية وتطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة– تأليف: د. سعيد حسن بحيري–ص ٢٤٥–ط: مكتبة الآداب– القاهرة– مصر– الطبعة الأولى– ٢٠٠٥م.

٣– ينظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب–د. محمد محمد يونس علي– ص ٤٤

٤– ينظر: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج–د. وهبة الزحيلي–٣٠/ ٦٢٤– ط: دار الفكر–دمشق– الطبعة العاشرة– ١٤٣٠هـ– ٢٠٠٩م.

قلة الرزق ببلدهم، مع ما فيه غيرهم، ممن هو أكثر منهم وأقوى، من الخوف والجوع، علم ذلك.[١]

وهي سورة مكية وعدد آياتها عشرون آية[٢] وفيها يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۝١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۝١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝٢٠ ﴾ .

ترجمة للشيخ/ محمد سيد طنطاوي، وتعريف بتفسيره.

هو الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوي شيخ الازهر الراحل، ولد بقرية سليم الشرقية –مركز طما –محافظة سوهاج– في ٢٨/ أكتوبر/١٩٢٨م، تلقى تعليمه الأساسي بقريته، وحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني عام ١٩٤٤م، وبعد انتهاء دراسته الثانوية، التحق بكلية أصول الدين وتخرج منها عام ١٩٥٨، ثم حصل على تخصص التدريس عام ١٩٥٩، وحصل وعمره ٣٨ على درجة الدكتوراه في التفسير والحديث.[٣]

١– ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور تأليف: الحافظ المفسر المؤرخ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي –ت: د. عبد السميع محمد أحمد حسنين –٣/ ١٩٣،١٩٤–ط: مكتبة المعارف– الرياض– الطبعة الأولى– ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م.

٢– ينظر: مصاعد النظر ١٩٣/٣

٣–ينظر: الدكتور محمد سيد طنطاوي وترجيحاته في التفسير الوسيط للقرآن الكريم دراسة عن تفسيره لسورتي الفاتحة والبقرة–للدكتور: نجيب أحمد عبد الله–ص٣– ط: مجلة النور– جامعة جلا الإسلامية– ٢٠١٠م

وهو يعد من أجل علماء الأزهر، وأكثرهم علما لاسيما في التفسير، وقد خاض معارك فكرية كثيرة، ومتعددة، كما شغل مناصب متعددة على رأسها مشيخة الأزهر الشريف، وقد توفي- رحمه الله- في ١٠/مارس/٢٠١٠م عن عمر يناهز ٨٢ عاما، ودفن بالبقيع.[١]

أما عن التفسير الوسيط فهو كما سماه فضيلته يمتاز بكونه وسيطًا أي بين الكبير والوجيز، وقد أشار فضيلته إلى أنه قد انتفع كثيرًا بما كتبه الكاتبون عن كتاب الله –تعالى- على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم، وقد كان هدفه من تأليفه أن يكون تفسيرًا علميًا محققا محررًا من الأقوال الضعيفة، والشبه الباطلة، والمعاني السقيمة.[٢]

١-ينظر: الدكتور محمد سيد طنطاوي وترجيحاته في التفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ٥

٢- ينظر: الدكتور محمد سيد طنطاوي وترجيحاته في التفسير الوسيط للقرآن الكريم ص ٥

توطئة

تعتبر الإشاريات إحدى جوانب البحث التداولي التي تعد بمثابة أدوات الربط التي تربط بين أجزاء الجملة، وبينها وبين مجموعة من الجمل، وذلك باعتبار أن النص يتألف من عدد من العناصر التي تقيم فيما بينها شبكة من العلاقات الداخلية التي تعمل على إيجاد نوع من الانسجام، والتماسك بين تلك العناصر، والتي تسهم الروابط التركيبية، والزمنية، والإحالية في تحقيقها، لاسيما البعد الإشاري للعلامة اللغوية الذي يمثل جزءًا مهما من مقاصد الخطاب، التي تفهم من سياقها الخارجي، ولا تتحقق إلا من خلال الاستعمال، والتي تبرز في المباحث الآتية:

المبحث الأول

الإشاريات الشخصية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى

تتمثل الإشاريات الشخصية في الضمائر الدالة على المتكلم والمخاطب والغائب، سواء أكانت متصلة أم منفصلة، إلى جانب أسماء الإشارة، والأسماء الموصولة التي وظفها السياق القرآني في تحقيق غاياته التي نقلها لنا الشيخ طنطاوي عند تفسيره، والتي تتجلي في مواطن عدة كشفت عنها السورة الكريمة.

يقول الدكتور/ محمد سيد طنطاوي:" والإشارة بلفظ (هذا) مع بيانه بالبلد، إشارة إلى حاضر في أذهان السامعين، لأن مكة بعضهم كان يعيش فيها، وبعضهم كان يعرفها معرفة لا خفاء معها، وشبيه بذلك قوله – تعالى –: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ}[١] وفائدة الإتيان باسم الإشارة هنا: تمييز المقسم به أكمل تمييز لقصد التنويه به"[٢]

فالشيخ طنطاوي –رحمه الله– بوقوفه عند هذه العلامة اللغوية كأنه يكشف عن دورها في تحقيق المعنى، وكشف غاياتها التي تحمل مع دلالات القرب من النفوس، والتعلق بها التعظيم لهذا البلد، والتنويه به، والتي يحملها التذكير المفاد من لفظة (هذا)، وما أضيفت إليه من ذكر لـ(البلد) الذي كأنه عرف لملاءمة التعظيم، والدلالة عليه، ولعل هذا هو وجه التنظير الذي أشار إليه من وراء ذكره لقوله– تعالى– ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البلدة الذي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيءٍ﴾، والتي كأنها جاءت بصيغة التأنيث ليشمل التعظيم الحالين، ولهذا وصفها بالاسم الموصول الموضوع للمذكر(الذي) تغليبًا لجانب التذكير باعتباره أكثر ملاءمة للتعظيم، ولعل وجه التأنيث ملاءمته لتأنيث القرية، والمدينة في قوله –تعالى–:

١–سورة النمل الآية (٩١)

٢– التفسير الوسيط للقرآن الكريم –لفضيلة الأستاذ الدكتور: محمد سيد طنطاوي –٣٠/ ٥٦٢– ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م

﴿ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[١] وقوله:﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[٢]، وأشعر أن التذكير والتأنيث كأنه يراعي جانب الترقي في التعظيم باعتبار ترتيب السور والآيات، ومن ثم وصف بالأمين في سياق سورة التين باعتباره الموطن الأخير لذكرها، والكناية عنها، وذلك في قوله –تعالى–:﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾[٣]، وفي القسم الضمني، والقسم الصريح ما قد يؤيد هذا.

فقد بدأ السياق القرآني باستخدام اسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا) دون أن يسبق بما يشار إليه في النص باعتباره علامة لغوية تكشف عن عظم مكة، وعظم منزلتها، والتي اقتضت ترك القسم بها، كما هو مفاد النفي المصدر به أسلوب (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) باعتبار أن هذا الأسلوب جار على عادات العرب في القسم، والتي يراد بها تأكيد الخبر، وأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويقال إنه يؤتى به في القسم إذا أريد تعظيم المقسم به، كأن القائل يقول: إني لا أعظمه بالقسم، لأنه عظيم في نفسه، والمعنى في كل حال على القسم[٤]، ولعل هذا ما يكمن وراء البعد الإشاري للضمير المستتر في الفعل (أقسم) بعودته على المولي –سبحانه وتعالى–، مما زاد المقام تعظيما، وتنويها، والقسم تأكيدًا وتقريرًا يكمن في إيثاره على الحلف بكونه أبلغ منه، وأقدر عليه.[٥]

١– سورة النمل الآية (٣٤)

٢– سورة النمل الآية (٤٨)

٣– سورة التين الآيات (١،٢،٣)

٤– ينظر: التفسير الوسيط ٣٠/ ٥٦٢

٥– ينظر: الفروق اللغوية–للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري–ت: محمد إبراهيم سليم– ص ٥٦ – ط: دار العلم والثقافة– القاهرة.

وفي إيثار السياق للعلامة اللغوية المتمثلة في اسم الإشارة (هذا) الموضوع للقريب دون (ذلك) ملاءمة لتعلق القلوب به، وقربها منه، وحبها له.

ثم إن ملامح التعظيم التي ينبض بها السياق كأنها هي التي اقتضت الإتيان بالضمير المخاطب في موطن الاعتراض بقوله:(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)، والتي كأنها تستحضر النبي– ﷺ – ليوجه له الخطاب، وهذا بخلاف التعبير بالاسم الظاهر الصريح، فإنه يحمل على الغيبة التي تقتضي عدم الحضور، ولعل هذا هو وجه الإشارة اللغوية الكامنة فيه، والتي اقتضت إعادة اسم الإشارة، وما أضيف إليه من ذكر للبلد، مقترنا بـ(الباء) الملائمة لذكرها أولًا بما فيها من معاني الملابسة والملازمة، الملائمة لشدة التعلق، وقوة المحبة فضلا عن التشريف والتنويه المرتبط بهما، والمعقود عليهما وهو ما أشار إليه الشيخ طنطاوي بقوله:" وجملة : { وَأَنتَ حِلٌّ بهذا البلد } معترضة بين القسم وجوابه، وقوله – تعالى –{حل} اسم مصدر أحل بمعنى أباح ، فيكون المعنى : وأنت – أيها الرسول الكريم – قد استحل كفار مكة إيذاءك ومحاربتك . . مع أنهم يحرمون ذلك بالنسبة لغيرك، في هذا البلد الأمين، ويصح أن يكون لفظ " حل " هنا بمعنى الحلال الذي هو ضد الحرام يقال: هو حل وحلال، وحِرْمٌ وحرام.. فيكون المعنى: وأنت أيها الرسول الكريم – قد أحل الله – تعالى – لك أن تفعل بهؤلاء المشركين ما شئت من القتل أو العفو، وتكون الجملة الكريمة، بشارة للنبي –ﷺ– بأن الله – تعالى – سينصره على مشركي قريش، ويمكنه من رقابهم.. وقد أنجز له – سبحانه – ذلك يوم الفتح الأكبر."[١]

فإيثار السياق للتعبير بالضمير المخاطب (أنت) دون أن يسبق له مرجع جاء ليعد بمثابة علامة لغوية تكشف عن حضوره الذهني –صلى الله عليه وسلم– وأن هذا التشريف لا يكون إلا له، ولا يخاطب به إلا هو، باعتباره حاضر

١–ينظر: التفسير الوسيط ٥٦٣/٣٠

في الذهن، حضور مكة زادها الله تشريفًا وتعظيمًا، فضلاً عما فيه من إقبال للمولى عليه، وإيناس له، وتطيب لخاطره، وذلك بما يحمله من تقدير كأن الشيخ طنطاوي قد قصد إليه بقوله (أيها النبي الكريم)، وفي تنوع دلالات قوله –تعالى– (حل) على أن المقصود به حل إيذائهم للنبي– ﷺ – ، أو حل تمكنه منهم وقضائه فيهم، أو بمعنى كونه حالًا فيها، مستقرًا بها، ما يلائم هذا التعظيم والتنويه باعتبار أن هذه الأقوال لا تعارض بينها ، بل يؤيد بعضها بعضا ، لأن الرسول –صلى الله عليه وسلم– قد آذاه أهل مكة ، بينما حرموا إيذاء غيره ، وأن الله – تعالى – قد مكن رسوله – ﷺ – منهم . كما حدث في غزوة الفتح، وأنه– صلى الله عليه وسلم– قد أقام معهم في مكة أكثر من خمسين سنة، وكان يلقب عندهم بالصادق الأمين.[1]

وتناغيا مع هالات التشريف والتنويه المفعم بها هذا السياق الذي تعد العلامات اللغوية الإشارية وسيلة من وسائله جاء التعبير بالاسم الموصول (ما) في قوله تعالى:(وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ) وذلك لأنه بما يحمله من معاني الإبهام مقارنة بـ(من) الموضوعة للعاقل فيه ما يلائم التفخيم المفعم به هذا السياق، وهو ما أشار إليه الشيخ طنطاوي بقوله:" وقوله – سبحانه –: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ معطوف على المقسم به الأول وهو قوله – تعالى –: ﴿بهذا البلد﴾، وداخل في حيز القسم، والمراد بالوالد آدم – عليه السلام –، والمراد بما ولد: ذريته من بعده، أي: أقسم بهذا البلد الذي له ماله من الشرف، والمكانة السامية بين البلاد.. وأقسم بأبيكم آدم، وبذريته من بعده.. أو أقسم بكل والد وبكل مولود، وجيء باسم الموصول (ما) في قوله {وَمَا وَلَدَ} دون (من) مع أنها أكثر استعمالا في العاقل الذي هو مراد هنا، لأن (ما) أشد إبهاما، وشدة الإبهام المقصود بها هنا التفخيم

١–ينظر: التفسير الوسيط ٣٠/٥٦٤

والتعظيم، وشبيه بذلك قوله – تعالى –: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ واللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾[١] كما أن تنكير لفظ (والد) هنا للتعظيم أيضا."[٢]

فالسياق بإيثاره العلامة اللغوية القائمة على الاسم الموصول (ما) دون (من) كأنه يناغي، ويحقق دلالات العموم التي تقصد إليها المعاني من وراء الجمع بين الوالد والولد، فضلًا عن الكثرة الناتجة عن صيغة الولادة نفسها، بكونها من التولد[٣]وبوقوعها على الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد[٤]، وإن كنت أشعر أن المقصود بـ(ما ولد) إنما هو النبي– صلى الله عليه وسلم–، وأن يكون التعبير بصيغة (ما) إنما جاء ليحقق تعدد خصاله، وشمول كماله، وذلك باعتباره أعظم مخلوق، وأكمل مولود، ولعل هذا هو وجه التنظير الوارد في قوله – تعالى(والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ)، وأن يكون هذا هو المقصود من وراء ذلك، وأن يكون التعبير بالاسم الموصول جاء ليلائم العلامة الإشارية الكامنة في التعبير بالضمير(أنت) باعتباره –صلى الله عليه وسلم– سبيل الهداية، المحقق للتشريف الذي ينبض به أسلوب القسم هذا الذي تمددت ألفاظه، وتعددت عباراته، وهو ما اقتضي توكيد المقسم به (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)، ومن ثم عبر بضمير المعظم نفسه في (خلقنا) تلاؤمًا مع عناصر التفخيم المفعم بها السياق فضلًا عن

١– سورة آل عمران من الآية (٣٦)

٢–التفسير الوسيط ٥٦٥/٣٠

٣– ينظر: الفروق اللغوية ص ٢٨٢

٤– ينظر: معجم مقاييس اللغة ١٤٣/٦(ولد)، والكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية –لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي– ت: د. عدنان درويش، ومحمد المصري– ص ٩٤٤،٩٤٥ – ط: مؤسسة الرسالة–الطبعة الثانية– ١٤١٩هـ –١٩٩٨م، ومعجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبى هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري –تنظيم: بيت الله بيات –ص ٥٦٦–ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.

دلالته على عظم المشقة والمعاناة التي يعيشها الإنسان ، وذلك تحقيقًا للتسلية المساق لها القسم، ومن ثم عدل عن صيغة التعظيم الكامنة في الضمير المستتر في (أقسم) رغم كونهما علامة لغوية مشتركة، ولم يؤثر السياق التعبير بالاسم الظاهر(الله) بأن يكون التعبير(لقد خلق الله الإنسان في كبد)؛ لأنه بما يتسم به من قوة كأنه لا يتلاءم مع غايات التسلية التي تقصد إليها المعاني والتي تتجلي في الإقبال عليه – ﷺ – والمخاطبة له ، وعرف (الإنسان) تحقيقًا لمعاني الكمال بشموله للروح والجسد[١]، في إشارة لشمول المعاناة للبدن والروح، وفي هذا تحقيق لدلالات العموم المعبر عنها بالقسم بالوالد وما ولد، والخلق بدلالته على التقدير الملائم للمعاناة التي صور السياق عظمها بدلالات الإحاطة المفادة من الظرفية المجازية (في) والتي تشير مع شدتها إلى إحاطة الكبد به، وسيطرته عليه، ولعل هذا وجه التعبير عن الشدة والمشقة بـ(الكبد) خاصة بما يحمله من قوة بأصل دلالته[٢]، ومراعاة لعظم إصابته التي لا يكاد ينجو منها أحد على التمثيل بإصابة الكبد الذي يودي بالحياة، وفي هذا ما يلائم عظم المعاناة الملائم لعظم التسلية الممثل للغاية الأولي من السياق، والذي تتعانق الإشاريات الشخصية مع المكانية في تقريره، وكشف كنهه، وبيانه، وهو ما تشير إليه الضمائر المتتابعة في السياق والتي تنوعت بين الظهور تارة، والاستتار تارة أخرى.

فالإضمار في قوله:(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) كأنه ما هو إلا إشارة، وكشف عن العجز الذي مني به، وهو ما لا يحققه التعبير بالاسم الظاهر(الإنسان) بما يحمله من كمال وتعظيم يتنافي مع ملامح العجز المشار إليها، ومن ثم عبر بالحسبان الكاشف عن الغفلة التي يكون عليها بتوهمه أنه لن يقدر عليه أحد، وألح عليه بالتكرار بقوله:(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)، ومن ثم نكَّر

١- ينظر: المفردات ص ١٩٢

٢- ينظر: معجم مقاييس اللغة ١٥٣/٥ (كبد)

السياق قوله:(أحد) لتحقيق معاني العموم، فالإضمار هنا كأنه علامة لغوية لهذا المغرور المتكبر المتسلط الذي لم يدرك أصل الخلقة القائمة على التعب والمشقة والمعاناة الموحية بالنقص، والضعف، والخور الذي لا ينبغي لمن يتصف به أن يتعالى أو يتكبر، ولعل هذا ما يكمن وراء العدول عن إظهاره بوضع المظهر موضع المضمر، فضلًا عن العدول عن الخطاب إلى الغائب الذي كأنه يشي بالبعد عن جادة الهداية والصلاح بهذا الظن ، وهو ما يؤكده الضمير الغائب الواقع مدخولًا لحرف الجر(على)، والذي قدم مع مدخوله على الفاعل المراعي للفاصلة القرآنية مراعاة للكبر والغرور، والعلو والفجور الذي يدعو إليه، ويجأر به.

ولعل هذا ما قصد الإشارة إليه الشيخ محمد سيد طنطاوي بقوله:" والاستفهام في قوله – تعالى – بعد ذلك: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ. يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً. أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ للإنكار والتوبيخ، أي: أيظن هذا الإنسان الذي هو في تعب ومشقة طول حياته، أنه قد بلغ من القوة والمنعة بحيث لا يقدر عليه أحد، إن كان يتوهم ذلك، فهو في ضلال مبين، لأن الله – تعالى – الذي خلقه، قادر على إهلاكه في لمح البصر، وقادر على أن يسلط عليه من يذله، ويقضى عليه، ويدخل في هذا التوبيخ دخولا أوليًا، أولئك المشركون الذين اغتروا بقوتهم، فآذوا النبي – ﷺ – وأصحابه إيذاءً شديدًا"[١]

ولعل هذا وجه إسناد الإهلاك إليه باعتباره المسئول عن ذلك القائم به دون مشاركة، أو دعوة، أو تحريض، وهو ما يكشفه الفعل القولي الذي كأنه مع استحضاره لهذا المشهد، ودلالته بصيغة المضارعة على التجدد الاستمراري نتيجة الكبر والغرور، يريد أن يقرن الذنب الفعلي بالذنب القولي بما يمثله من إصرار وإلحاح، وحقد وحنق يشي به التعبير عن الإنفاق بالإهلاك خاصة، مما يلائم

١– ينظر: التفسير الوسيط ٥٦٧/٣٠

التحقير المقتضي للعدول عن التعبير بالاسم الظاهر إلى الضمير الغائب في(يقول) ثم المخاطب في (أهلكت) والذي كأنه يلائم الاستحضار المعبر عنه بالمضارعة، فضلًا عن التحقير الملائم لقبح الذنب، وشناعة الجرم، ومن ثم جاء التوبيخ بقوله :﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ في صورة إقرار النعم، وإظهار المنن المشار إليها بضمائر التعظيم الكامنة في(نَجْعَلْ)، والبارزة في (هَدَيْنَاهُ)، رغم عظم الجرم المشار إليه بضمائر الغائب التي كأنها تلائم فقد الوعي، وذهاب الحس، المنافي للاهتمام المفاد من التقديم، مع ما يحمله من تخصيص تشي به اللام المرتبطة به، والتي كأنها تكشف عن التعهد والرعاية، والإنعام والإكرام الذي يدل عليه الفعل (نَجْعَلْ)، وذلك بعدم استخدامه في ابتداء الفعل وإنشائه[1]، مما يلائم(الخلق) المنصوص عليه في هذا السياق القرآني، وما ترتب عليه من الهداية التي أوثرت على (الإرشاد) لتلائم ذكر طريقي الخير والشر، وذلك بكونها للمحمود والمذموم بخلاف (الإرشاد) الذي لا يكون إلا للمحبوب، هذا فضلًا عما تحمله (الهداية) من دلالة على التمكن من الوصول[2]، وفي هذا دلالة على كونه خاضعًا لتقدير الله، وحكمه الملائم للتعظيم المشار إليه بالضمير(نا)، فضلًا عن التسلية التي قد تذهب بالعدول عن التعبير بضمائر التعظيم لو صُرح بالفاعل الظاهر بأن يكون التعبير(ألم يجعل الله له عينين* وهداه النجدين)، وذلك بما تنبض به من رحمة، وحرص، ورغبة في الهداية مع عدم الحاجة المشار إليها بضمائر التعظيم الكامنة في(نجعل) و(هديناه)، ومن ثم جاء التحضيض والترغيب بقوله:(فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ *يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) بما يحمله من معاني الترويض لهذه النفوس النافرة التي كأن

١- ينظر: الكليات ص ٣٤٨

٢- ينظر: الفروق اللغوية ص٢٠٩

الإشارة بضمير الغائب الكامن في الفعل (اقْتَحَمَ) دون التعبير بالفاعل الظاهر(الإنسان)، يشير إلى بعدها عن جادة الصواب، وطريق الهداية التي كأن السياق يدعو إليها من خلال تعديد وسائل ، وطرق الخير المتمثلة في العتق، والإطعام ، ومن يرتبط به، مما يعد سبيلًا من سبل الترويض، والتأليف التي ينبض بها التراخي المفاد من العطف بـ(ثم) بقوله:﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، وهو ما أشار إليه الشيخ/ طنطاوي بأنه من باب التراخي الرتبي للدلالة على أن ما بعدها أصل لقبول ما قبلها[١]، والذي كأنه يشي به إلى التأليف والترويض الذي حظيت به هذه النفوس التي أراد الله بها الخير، ما يعد من أعظم الوسائل التي تحقق التسلية التي تقصد إليها المعاني في هذه السورة الكريمة، ومن ثم جاءت الإشارة بالاسم الموصول (الذي)؛ لتكشف عن درجات الكمال التي بلغتها هذه النفوس بإلف الطاعة، والمداومة عليها، ومبالغة في اللفت إلى ذلك جعل الاسم الموصول مدخولًا لـ(من) الحاملة بدلالات الابتدائية لمعاني الأولية الملائمة للتعظيم الذي ينبض به السياق بعدوله عن التعبير بـ(المؤمنين) إلى (الَّذِينَ آمَنُوا) الدال باقترانه بـ(من) على أنهم بتقواهم ، وطاعتهم أصبحوا في صدر المؤمنين، وفي مقدمتهم، طاعة وإخلاصًا، صبرًا واجتهادًا، ومن ثم ألح عليهم بالعلامات الإشارية الكامنة في ضمائر الجمع بقوله:(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)، والمفادة من ترداد الفعل الدال على هدايتهم في أنفسهم، وتعاهدهم لغيرهم، وذلك بما يحمله لفظ التواصي من تعاهد، ومشاركة بكونه للنفس والغير، فضلًا عن كونه بالخير[٢] المنصوص عليه بالصبر، والمرحمة، والتي أوثرت على الرحمة لتناغي الحرص والإلحاح المدلول عليه بالصبر، فضلًا عن عظم الثواب المعقود

١–ينظر: التفسير الوسيط ٣٠/٥٧٤

٢–ينظر: الفروق اللغوية ص ٢٤٢

عليها، والذي اقتضي إشارية البعد الدالة على عظم المكانة الكامنة في(أولئك)، والتي لم ترتب على ما قبلها بالعطف، لتكشف عن التلاحم الكائن نتيجة التواصي، والذي كأنه انتقل إلى اللفظ، فطُبع بطابعه، ونال من حظه، ومن ثم عبر بـ(الأصحاب) الدالة على دوام الملازمة نتيجة حب الخير، وإدمان الطاعة، وأضافها إلى الميمنة باعتبارها علامة إشارية مكانية تحقق التشريف، وتدعو إلى التعظيم، الذي كأنه يحقق الترقي الرتبي المفاد من العطف بـ(ثم) الذي أشار إليه الشيخ طنطاوي عند تأمله لهذا الجزء السياقي من السورة الكريمة.

ولعل هذا ما يشى إليه بقوله:" وخص – سبحانه – من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر ، وتواصيهم بالمرحمة ، لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله – تعالى –، واسم الإشارة في قوله: ﴿أولئك أَصْحَابُ الميمنة﴾ يعود على الذين آمنوا وتواصوا بالصبر ، وتواصوا بالمرحمة . أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الكريمة، هم أصحاب الجهة اليمنى التي فيها السعداء الذين يؤتون كتابهم بأيمانهم، فالمراد بالميمنة: جهة اليمين"[1]، وإنما لم يأت بضمير الفصل المقتضي للقصر بقوله: ﴿أولئك هم أَصْحَابُ الميمنة﴾ لأن غايات التخصيص ليست مقصودة في هذا السياق الذي يكشف عن أن تجليات الطاعة والهداية هذه إنما هي بتوفيق الله، وإرشاده، وعنايته، وأنها لم تكن نتاج كسب، بل هي محض رحمة من الله المستغني عن خلقه، بكونه –سبحانه– لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، ما يعد وجهًا لإيثار التعبير بضمائر التعظيم دون الاسم الظاهر في (نجعل) و(هديناه)، وفي هذا علامة إشارية كأنها تكشف عن أصول التسلية التي تقصد إليها المعاني تثبيتًا لرسول الله – ﷺ –، الذي لاقى ما لاقى في سبيل تبليغ دعوته، ونشر رسالته.

١–التفسير الوسيط ٣٠/٥٧٤

وتحقيقًا لمعاني المفارقة بين طريقي الهداية، والضلالة بني السياق القرآني قوله – تعالى–:﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾على الاستئناف مستخدمًا العلامة الإشارية ذاتها، وذلك بقوله:(والذين)

التي كأنها تكشف عن كمالهم في القبح، والذنب، والجرم، والذي تشعر به التغطية، والستر، والتعمية المفادة من التعبير بـ(الكفر) الكائن مع وضوح الحقائق، وتبين الدلائل نتيجة القرب من الآيات، والتلبس بها، والتي يفيدها التعبير بدلالات الإلصاق المفادة من (الباء)، فضلًا عن تعدد الآيات، وتنوعها ، وشمولها للظاهر والباطن، المعلوم والمجهول، الشاهد والغائب[1]، ، والتي أضيفت إلى الله– سبحانه وتعالى– لتأكيد عظمها، ووضوحها، وجلائها الذي لا يستحق إنكارًا وتعمية، وسترًا وتغطية، دعتهم إلى ارتكاب الجرائم التي صورها الكبر والتعالي، والإصرار والعناد المفاد من قوله–تعالى–:(أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ)، وهو ما اقتضى قصر أصحاب المشأمة عليهم، وهو ما يشير إليه ضمير الغائب (هم) الذي خالف به السياق نمط التعبير السابق الوارد في شأن المؤمنين، والذي كأنه يلائم الملازمة التي تشي بها لفظة (أصحاب) المضافة إلى الجهة التي يكونون فيها، والتي كأن السياق يشير إليها بذكر (النار المؤصدة) المقصورة عليهم، والتي كأنها لا تتعداهم إلى غيرهم، وفي التعبير بحرف الاستعلاء ما يشي بتسفل المكان الذي يكونون فيه ، ودونيته المكنى عنها بالجهة المنصوص عليها، والتي عدل عنها إلى المشأمة لتلائم المعنيين الشمال والشؤم، وكفي بالإغلاق المنصوص عليه شؤمًا، وقطعًا للأمل والرجاء.

ولعل هذا ما قصد إليه الشيخ محمد سيد طنطاوي بقوله:" ثم بين – سبحانه – بعد ذلك سوء عاقبة الكافرين فقال: ﴿والذين كَفَرُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: الدالة

١– ينظر: الكليات ص ٢١٩

على وحدانيتا وقدرتنا {هُمْ أَصْحَابُ المشأمة} أي: هم في جهة الشمال التي فيها الأشقياء، أو هم أصحاب الشؤم على أنفسهم بسبب إصرارهم على كفرهم، {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ} أي: عليهم نار مغلقة بحيث لا يستطيعون الخروج منها، تقول آصدت الباب وأوصدته، إذا أحكمت غلقه، والاسم فيهما، الإصاد والوصاد"[1]

فالشيخ بتصدير قوله: بـ(ثم) كأنه يشعر بفارق ما بين الصنفين، وتباعد ما بين الحالين حال الهداية، وحال الضلال، ولهذا غاير السياق القرآني بين التعبيرين، ففي جانب المؤمنين عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أُولَئِكَ) تعظيما وتنويها بهم، وإشارة إلى حضورهم، وظهورهم، وتبين حالهم، وفي جانب الكفار عبر بالضمير الغائب (هم) تلاؤمًا مع خفائهم، وغيابهم، المكنى عنه بالوصاد، وفي إعادة الضمير في (عليهم) ما يلائم الإلحاح على إبراز هذه الحالة، وكشف فحواها، ومن ثم نكر قوله (نار) لأن غايات المعاني هي بيان الإغلاق، المفاد من الوصف بقوله–تعالى–(مؤصدة) الذي كأنه يقطع بوارق الآمال، المؤكدة للغياب الذي تحمله الإشاريات الكامنة في العلامة اللغوية (هم).

١–التفسير الوسيط ٣٠/٥٧٥

المبحث الثاني

الإشاريات الزمانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى

الإشاريات الزمانية عبارة عن كلمات تدل على زمان يحدده السياق بالقياس إلى زمان التكلم، إذ هو مركز الإشارة الزمانية في الكلام، فإذا لم يعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ[١]

وذلك لأن دلالة الزمن لا تتحدد بزمن الفعل أو الظرف في حد ذاته، وإنما بزمن التلفظ، ومعنى ذلك أننا عندما نعمد لظرف زمان مثل (أمس)، فإن دلالته تتحدد بالزمن الذي أنتج فيه الملفوظ، أي أنه يدل على اليوم الذي سبق إنتاج الملفوظ، وبالمثل فإن (غدًا) تدل على اليوم الذي يلي زمن الحديث، ومن هذا المنظور يتضح أن الزمن بقدر ما يمثل عنصرًا ملازمًا لكل لغة، وحدث لغوي بقدر ما تتصل دلالته بالخطاب، والاستعمال.[٢]

وفي حالة عدم معرفة مرجع الزمان، فقد يواجه القارئ أو المستمع مشكلة تتمثل في عدم معرفته لما يتشابه، فإن ورد في كتاب ما ذكر الحرب، دون إشارة إلى زمانها، فقد يتساءل القارئ عن أي حرب هي، وكذلك لو ورد ذكر صفة اعتبارية لرئيس دولة مثلا، أو قائم بأمر ما دون ذكر الزمان حينها فذلك مما قد يسبب التباسًا.[٣]

والعناصر الإشارية الزمانية قد تكون دالة على الزمان الكوني، الذي يفترض سلفًا تقسيمه إلى فصول، وسنوات، وأشهر، وأيام، وساعات إلخ، وقد

١- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر-د. محمود أحمد نحلة- ص١٩- ط: دار المعرفة الجامعية- ٢٠٠٢م.

٢- ينظر: التداولية أصولها واتجاهاتها – جواد ختام –ص ٨٠،٨١–ط: دار كنوز المعرفة- عمان –الطبعة الأولى- ١٤٣٧هـ-٢٠٠٦م

٣- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص٢٠

تكون دالة على الزمن النحوي وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمن النحوي عن الزمان الكوني فتستخدم صيغة الحال للدلالة على المضي، وصيغة المضي للدلالة على الاستقبال، فتظهر إشكالية لا يحلها إلا معرفة سياق الكلام، ومرجع الإشارة.[١]

وإسقاطًا على الإشاريات الزمانية الواردة في سورة البلد من خلال التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي يجد المتأمل أن السياق القرآني آثر استخدام النفي الاستقبالي الزماني بقوله:(لا أقسم) ليلائم التعظيم والتنويه بهذا البلد المشار إليه باسم الإشارة الموضوع للقريب الدال على قربه من النفوس، وتمكنه منها، مهما طالت الأزمنة، وتعاقبت السنون، وهو ما تفييده، وتشير إليه صيغة المضارعة (أقسم)، فضلًا عن مادتها بكون أصلها من القسامة، وهي أيمان تُقسّم على أولياء المقتول، التي صارت اسما لكل حلف[٢]،ومن ثم جاءت الإشارة بالضمير المخاطب (أنت) الذي كأنه يدل على أنَّ نفي القسم هذا كائن مع كل من يسير على نهج النبي- ﷺ -، ويتبع سنته، وهو ما تفيده (الباء) بدلالتها على الملابسة في (بِهَذَا الْبَلَدِ)، فضلًا على التكرار، وهو ما تقرره ، وتشير إليه دلالات العموم المتحققة من الجمع بين الوالد والولد، مصحوبًا بالتنكير المترجم عن العموم والشمول، وهو ما أشار إليه الشيخ طنطاوي بإيراد احتمالات متنوعة عن المقصود بهما[٣]، ومما يشي بدلالات الاستقبال فضلا عن العموم التي ينبض بها السياق من وراء القسم المنفي ما صرح به الشيخ طنطاوي بقوله:" وفيه تثبيت لرسول الله – ﷺ –، وبعث على احتمال ما كان يكابد من أهل مكة ، وتعجيب من حالهم في عداوته، أو سُلى – ﷺ – بالقسم ببلده ، على أن الإنسان

١- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ص٢١

٢- ينظر: المفردات ص٤٠٣

٣- ينظر: التفسير الوسيط ٣٠/٥٦٥

لا يخلو من مقاساة الشدائد ، واعترض بأن وعده فتح مكة تتميما للتسلية والتنفيس عليه فقال : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهذا البلد ﴾: يعنى : وأنت حل به في المستقبل ، تصنع فيه ما تريد من القتل والأسر، فإن قلت : أين نظير قوله : ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ ﴾ في معنى الاستقبال؟ قلت: قوله –تعالى– ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾، وكفاك دليلا قاطعا على أنه للاستقبال، وأن تفسيره بالحال محال، أن السورة بالاتفاق مكية، وأين الهجرة من وقت نزولها؟ فما بال الفتح؟"[١]

وجاء التعبير بالماضي المؤكد في ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾؛ ليكشف عن تنوع الإشاريات المشتملة عليها هذه السورة الكريمة، والتي كأنها تقصد إلى أن المشاق والشدائد التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا كائنة من الأزل؛ ولهذا عبر بالخلق الذي يكون على غير مثال، وهذا باب عظيم من أبواب التسلية للحبيب المصطفى – ﷺ – والتي كأنها تذكره بمعاناة سيدنا آدم أبي الخليقة، وخروجه من الجنة، وهبوطه إلى الأرض، ولا يبعد أن يكون في ذكر الوالد والولد، والقسم بهما ما يشير إلى ذلك، ويلائمه، ومن ثم استحضر المعاناة بصيغة المضارعة المقترنة بالاستفهام ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ* يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا * أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، والتي تستحضر التجدد والاستمرار، فضلًا عن العناد والاستكبار، والإلحاح والإصرار، وهو ما يفيده التأبيد المفاد من(لن)النافية للقدرة المترتبة على الحسبان النابع عن غفلة[٢]، وعدم إدراك لواقع وحقيقة ما يعيش مما يدعوه إلى الكبر والتعالي المترجم في صورة نفي القدرة عليه من أحد كائنا من كان كما هو مفاد التعميم المدلول عليه بالتنكير في (أحد)

١–التفسير الوسيط ٣٠ /٥٦٣،٥٦٤

٢– ينظر: المفردات ص١١٧، ١١٨

فضلًا عن أنها بكونها أعم من الاستطاعة تلائم دلالات العموم المحققه للكبر، والداعية إليه رغم بطلانه المعبر عنه بالحسبان[١]، المكرر بصيغة المضارعة ليشير إلى استمراره، وتجدده رغم كذبه، وبطلانه، والذي كأنه يفارق به زمن النزول، ووقته ليدل على تصوير الإنسان المستعلي المتكبر في كل زمان، وعلى كل حال، ومن ثم قُرن بالقول في (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا) ليقرن الواقع النفسي بالواقع الحسي المترجم عن الإلحاح، والإصرار المفاد من دلالات التجدد والاستمرار المفادة من الإشاريات الزمانية، التي كأنها تناغي النفي المتجدد في صدر السورة.

وفي شأن ذلك يقول الشيخ محمد سيد طنطاوي:" وقوله – سبحانه –: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ توبيخ لهذا المغرور إثر توبيخ، وتجهيل في أعقاب تجهيل، أي: أيظن هذا الجاهل المغرور، حين أنفق المال الكثير في المعاصي والسيئات، أن الله – تعالى – غير مطلع عليه؟ إن كان يظن ذلك فهو في نهاية الجهالة وانطماس البصيرة، لأن الله – تعالى – مطلع عليه، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وسيحاسبه على ذلك حسابا عسيرا"[٢]

ثم تستأنف السورة الإشاريات الزمانية بصيغ المضارعة ولكن في صورة تقرير للنعم التي يستطيع بها الإنسان أن يميز الخبيث من الطيب، والضار من النافع، والحق من الباطل، وذلك بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾، والتي كأنه يفارق بها حدود الزمان باعتبارها أدوات لمعرفة الحق، وإدراكه، والنطق به، وإظهاره في كل مكان، وزمان، وعدل السياق عن التعبير بصيغ المضارعة إلى الماضي في(وَهَدَيْنَاهُ)، تحقيقًا لمعاني التسلية التي

١-ينظر: معجم الفروق اللغوية ص ١٨٥

٢-التفسير الوسيط ٥٦٨/٣٠

تقصد إليها المعاني باعتبار أن الهداية من عدمها أمر أزلي منوط بالقدرة الإلهية التي قدرت الخير لمن أراد الله به الخير، وقدرت الشر لمن علمت منه الشر، وذلك تأنيسا للنبي – ﷺ – حتى لا تذهب نفسه عليهم حسرات لعدم هدايتهم، وعنادهم، واستكبارهم، رغم امتلاكهم لأدوات الهداية، ومعرفة الحق، المتمثلة في العينين، واللسان والشفتين، والتي تمهد لهم السلوك القويم، ولو من غير دعوة أو إرشاد، وبهذا اتخذ السياق من الإشاريات الزمانية وسيلة لتحقيق التسلية التي تقصد إليها المعاني في هذا السياق الكريم، والتي كأنها هي التي تدعو إلى المسارعة من وراء صيغة الماضي المحققة للوقوع، والتي ينبض بها أسلوب التحضيض بقوله –تعالى–:﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾،بما يحمله من قوة، واندفاع، والذي فسر بقوله تعالى:﴿فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، والذي قيد فيه الإطعام بكونه:(فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ) للدلالة على عظمته، وإحاطته والتي يصورها وقوعه مدخولًا لـ(في)، فضلًا عن تنكيره الدال على العموم والشمول، رغم التخصيص المفاد من وصفه بـ(ذي مسغبة) الدال على شدته، بكونه جوعا مع تعب[1]، وفي هذا ما فيه من معاني الإيثار، والتضحية ، والفداء التي يحملها باعتبارها إشاريات تكمن وراء التعبير بهذا الظرف الزماني، والذي قيد الإطعام فيه بكونه ليتيم ذي مقربة، أو مسكين ذي متربة، والذي أوثر فيه العطف بـ(أو) بما يحمله من تخيير ليكشف عن عظم شدة هذا اليوم، الذي كأن الإنفاق فيه لا يكون إلا لشريحة معينة أو صنف معين، وذلك نظرًا لشدته التي جعلته يشعر بها، وكأن الجوع، والعطش، والتعب قد أصابه، وسيطر عليه، يشي بذلك قول الشيخ طنطاوي: "والمسغبة: المجاعة ، مصدر ميمي بمعنى السَّغَب ، يقال : سغب الرجل – كفرح ونصر – إذا أصابه

١– ينظر: المفردات ص٢٣٣

الجوع، ووصف اليوم بذلك على سبيل المبالغة كما في قولهم: نهاره صائم"[1]، ومن ثم خُصص بـ(الإطعام) دون(الإنفاق)، وقُدِّم اليتيم ذو المقربة فيه باعتبار الصدقة والصلة، على المسكين ذي المتربة الذي لصق بالتراب عوزا ، وحاجة نتيجة شدة هذا اليوم، وشدة الحاجة فيه، وفي تنكير اليوم هذا دلالة على طوله نتيجة طول المعاناة التي كأن الإشباع بالوصف يشي بها، ويدل عليها.

يقول الشيخ طنطاوي:" وخص – سبحانه – الإطعام بكونه في يوم ذي مجاعة، لأن إخراج المال في وقت القحط، أثقل على النفس، وأوجب لجزيل الأجر، كما قال – تعالى –: {لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنْفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}[2] وقيد – سبحانه – اليتيم بكونه ذا مقربة، لأنه في هذه الحالة يكون له حقان: حق القرابة، وحق اليتم، ومن كان كذلك فهو أولى بالمساعدة من غيره"[3]، لاسيما في هذا اليوم الموسوم بالشدة.

ثم إنّ هذه الرياضة كأنها هي التي مهدت للعلامة الإشارية الكامنة في التعبير بصيغة الماضي في قوله –تعالى–:﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ الدالة على تحقق الوقوع، باعتبار أن هذه الأعمال السابقة من فك الرقاب، والإطعام كأنها هي التي رسخت للكون من المؤمنين، ومن ثم جاء السياق بالإيمان في صورة الجملة الواقعة صلة للموصول، ورتب عليها التواصي بالصبر الملائم للشدة، والتواصي بالمرحمة الملائم للقربى والصلة، وخص –سبحانه– من أوصاف المؤمنين تواصيهم بالصبر، وتواصيهم بالمرحمة، لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله –

١– التفسير الوسيط ٥٧٢/٣٠

٢– سورة آل عمران من الآية (٩٢)

٣– التفسير الوسيط ٥٧٣/٣٠

تعالى-[1]؛ ولهذا أعاد الفعل معها عناية واهتماما، وذلك بما يحققه التواصي بأصل دلالته من دعوة للتواصل، وتحقيق له، وكأنه الارتباط بالبيت الحرام المصدر به القسم، وفي صيغ الماضي المعبر بها في (كان- تواصوا) ما يناغي وجوب الثواب الموعود لهم بقوله:﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾، والذي كأن السياق أراد التأكيد عليه بصيغة الماضي في﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾، وذلك بما تحققه من ثبوت العذاب المشار إليه بـ﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ﴾، مما يكشف عن الإلحاح، والعناد، والاستكبار، المقابل للطاعة، والبر، والإحسان المصور بالإيمان، والتواصي بالصبر والمرحمة، فضلًا عن الإلف والقرب الذي يحقق التسلية التي يدعو إليها السياق العام للسورة الكريمة مما يكشف عن دور الإشاريات الزمانية في تحقيق الأغراض العامة، والدعوة إليها.

١- التفسير الوسيط ٣٠/٥٧٤

المبحث الثالث

الإشاريات المكانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى

الإشاريات المكانية تمثلها بصورة عامة ظروف المكان، ويعتمد استعمالها، وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التكلم، أو على مكان آخر معروف للخطاب أو للمخاطب والسامع، ولعل أكثر الإشاريات المكانية الواضحة هي: هذا، وذاك، وهنا وهناك، وتحت...[١]

وذلك لأن لتحديد المكان أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربًا أو بعدًا أو وجهة حيث يستحيل على الناطقين باللغة أن يستعملوا أو يفسروا كلمات مثل هذا وذاك، وهنا وهناك، ونحوها، إلا إذا وقفوا على ما تشير إليه بالقياس إلى مركز الإشارة إلى ذلك المكان، فهي تعتمد على السياق المادي المباشر الذي قيلت فيه[٢]، فضلًا عن أنها لا تحمل دلالتها في ذاتها، بل إن معناها يتحدد بسياق التلفظ، فعندما أقول: أنا جالس قرب المنزل، يظهر أن ظرف المكان(قرب المنزل) لا قيمة له إلا في حال معرفته بمكان التلفظ، وكذلك إذا غير المتكلم مكانه فسيصبح ظرف المكان مجردًا من معناه، فإن تحديد المرجعية المكانية تفرض على المخاطب مراعاة سياق إنتاج الخطاب.[٣]

وتعد أكثر الإشاريات المكانية وضوحًا هي كلمات الإشارة نحو (هذا وذاك)، للإشارة إلى قريب أو بعيد من مركز الإشارة المكانية: وهو المتكلم، وكذلك (هنا وهناك) وهما من ظروف المكان مثل: فوق وتحت وأمام وخلف، وكلها عناصر يشار بها إلى مكان لا يتحدد إلا بمعرفة موقع المتكلم واتجاهه.[٤]

١- ينظر: التداولية نشأة المفاهيم والتصورات ص٢٧٥

٢- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر-ص٢١،٢٢

٣- ينظر: التداولية أصولها واتجاهاتها ص٨١

٤- ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر-ص ٢٢

وقد تنتقل عناصر الإشارة إلى المكان للإشارة إلى ما يسمونه: المسافة العاطفية، وتسمى حينها بالإشارة الوجدانية، وهي أقرب إلى ما يسميه علماء المعاني بالتحقير بالقرب، والتعظيم بالبعد.[١]

ومن الإشاريات المكانية في سورة البلد ذكر مكة، والتعبير عنها بـ(البلد) للدلالة على عظمها، وعظم مكانتها؛ ولهذا عبر عنها بالتذكير، وعرفها بـ(أل)، وأشار إليها بـ(هذا) الدالة على قربها من النفوس، وتمكنها فيها، قربًا وتمكنًا كأنه يلوح من ترددها، وإعادة ذكرها بقوله –سبحانه وتعالى–:(وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ)، عناية واهتماما بها، وإجلالًا وتعظيمًا لها يشي بذلك كمالها المكني عنه بـ(البلد)، وكأن غيرها لا يسمى بلدًا، ولا يوسم وطنًا، ولعل هذا ما قصد إليه الشيخ طنطاوي بقوله:" افتتحت السورة الكريمة بالقسم، تشويقا لما يرد بعده ، وتأكيدا للمقسم عليه، و "لا" في مثل هذا التركيب ، يرى المحققون أنها مزيدة للتأكيد ، والمعنى : أقسم بهذا البلد . أي: مكة المكرمة، وقد جاء القسم بها في قوله – تعالى –: ﴿والتين والزيتون. وَطُورِ سِينِينَ. وهذا البلد الأمين﴾ قال الشيخ محمد عبده – رحمه الله –: قوله: {لاَ أُقْسِمُ..} عبارة من عبارات العرب في القسم، يراد بها تأكيد الخبر، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم، ويقال إنه يؤتى بها في القسم إذا أريد تعظيم المقسم به، كأن القائل يقول: إني لا أعظمه بالقسم، لأنه عظيم في نفسه، والمعنى في كل حال على القسم "[٢]

وفي هذا ما يكشف عن دور الإشاريات المكانية في تحقيق الغاية الدلالية من وراء التسلية التي اقتضت الإتيان بـ(في) الظرفية المكانية التي جعلت (الكبد)

١–ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر–ص٢٣

٢– التفسير الوسيط ٣٠/٥٦١،٥٦٢، وينظر: تفسير القرآن الكريم–للأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده–٣٠ /٢٩،٨٧ –ط: مطبعة مصر–الطبعة الثالثة–١٣٤١هـ

وكأنه يحيط بالإنسان ويشمله بحيث لا يكاد ينفك عنه، أو ينسلخ منه، يشعر بهذا التنكير بما يحمله من تعظيم، فضلًا عن التنوع، والتعدد، ولعل هذا هو سر التعبير بـ(الكبد) خاصة بأصل دلالته على الشدة والقوة[١]، والتي أكد السياق التصاقه بجنس الإنسان، وتلبسه به كما هو مفاد ما ذكره الشيخ طنطاوي بقوله:" والمراد بالإنسان : جنسه ، والكبد : الشدة والتعب والمشقة، من المكابدة للشيء، بمعنى تحمل المشاق والمتاعب في فعله، وأصله من كَبِد الرجل – بزنة طرب – فهو أَكْبَد ، إذا أصيبت كبده بالمرض ، ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تعب ومشقة تنال الإنسان، والمعنى : لقد خلقنا الإنسان لهذه الشدائد والآلام ، التي هي من طبيعة هذه الحياة الدنيا، والتي لا يزال يكابدها وينوء بها، ويتفاعل معها .. حتى تنتهي حياته، ولا فرق في ذلك بين غنى أو فقير، وحاكم أو محكوم وصالح أو طالح.. فالكل يجاهد ويكابد ويتعب، من أجل بلوغ الغاية التي يبتغيها"[٢]،"وقال – سبحانه – { فِي كَبَد } للإشعار بأنه لشدة مقاساته ومكابدته للمشاق والمتاعب ، وعدم انفكاكه عنها . . كالظِرف بداخل المظروف فهو في محن ومتاعب ، حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحوالهُ أحوالَ هذا العالم"[٣]، وفي هذا إيحاء بدلالات الإحاطة التي تفيدها (في) الظرفية المجازية، التي صورت (الكبد) وكأنه شيء حسي يحيط بالإنسان، ويشمله في كل شئونه، ومختلف أحواله، مهما طالت الأزمان، وتتابعت القرون، واختلفت الأماكن، وتنوعت الحدود.

وأشار السياق القرآني إلى طريقي الهداية والضلالة بـ(النجدين) الدالة على المكان المرتفع وهو ما ذكره الشيخ محمد سيد طنطاوي بقوله: " والنجد: الأرض

١- ينظر: معجم مقاييس اللغة ١٥٣/٥ (كبد)

٢- التفسير الوسيط ٥٦٦/٣٠

٣ – التفسير الوسيط ٥٦٧/٣٠

المرتفعة، وجمعه نجود، ومنه سميت بلاد نجد بهذا الاسم، لأنها مرتفعة عن غيرها.. والمراد بالنجدين هنا: طريق الخير. وطريق الشر، أي: وهدينا هذا الإنسان وأرشدناه إلى طريق الخير والشر، عن طريق رسلنا الكرام، وعن طريق ما منحناه من عقل، يميز به بين الحق والباطل، ثم وهبناه الاختيار لأحدهما، كما قال – تعالى –: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السبيل إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ قال بعض العلماء: وكأنهما إنما سميا نجدين – أي: سبيل الخير والشر: لأنهما لما وضحت الدلائل، وقربت الحجج، وظهرت البراهين، جعلا كالطريق المرتفعة العالية، في أنها واضحة لذوى الأبصار، أو إنما سميا بذلك ، للإشارة إلى أن في كل منهما وعورة يشق معها السلوك ، ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضها ، وليس سلوك طريق الشر بأهون من سلوك الخير ، بل الغالب أن يكون طريق الشر ، أشق وأصعب ، وأحوج إلى الجهد "[١]

وفي هذا دلالة على أن للإشاريات المكانية دلالاتها الساطعة في توضيح المعنى، وكشف الدلالة، وبيان الغاية، وذلك بما تقوم به من تقريب المعني، وعرضه في صورة محسوسة، تسهم في تقرير حقيقته، التي ينبغي أن تقود الناس إلى طريق الخير، ونبذ طريق الشر، ولعل هذا هو وجه تعريفه بـ(أل) المؤكدة لظهوره، وجلائه التي كأنها تسل الحزن والألم الذي كان يعتصر قلبه –صلى الله عليه وسلم–، ويسيطر على وجدانه لعدم هدايتهم، وتنكبهم وإعراضهم عن سبيلها، ومن ثم جاء التحضيض على اقتحام العقبة باعتبارها علامة لغوية إشارية تلائم ذكر النجد، وتحقق الغاية منه، وذلك بما يحمله الاقتحام من إقدام في سرعة وجرأة أشار إليها الشيخ طنطاوي بقوله:" وبعد بيان هذه النعم الجليلة التى أنعم الله بها – سبحانه – على الإنسان ، أتبع – سبحانه – ذلك بحضه

١– التفسير الوسيط ٣٠/٥٦٩، ٥٧٠

على المداومة على فعل الخير ، وعلى إصلاح نفسه ، فقال – تعالى – : ﴿ فَلاَ اقـتحم العقبـة ﴾ للتفريع على ما تقدم ، والمقصود بهذه الآية الحض على فعل الخير بدل الشر، وقوله : { اقتحم } من الاقتحام للشيء ، بمعنى دخوله بشدة . يقال: اقتحم الجنود أرض العدو، إذا دخلوها بقوة وسرعة، وبدون مبالاة بارتكاب المخاطر، والعقبة في الأصل: الطريق الوعر في الجبل، والمراد بها هنا: مجاهدة النفس، وقسرها على مخالفة هواها وشهوتها، وحملها على القول والفعل الذى يرضى الله – تعالى –، والمعنى: لقد جعلنا للإنسان عينين ولسانا وشفتين، وهديناه النجدين، فهلا بعد كل هذه النعم، فعل ما يرضينا، بأن جاهد نفسه وهواه، وبأن قدم ماله في فك الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين... وقد استعيرت العقبة لمجاهدة النفس ، وحملها على الإنفاق في سبيل الخير؛ لأن هذه الأعمال شاقة على النفس، فجعلت كالذي يتكلف سلوك طريق وعر .. ويصح أن تكون (لا) هنا، على معناها الحقيقي وهو النفي، فيكون المعنى: أن هذا الإنسان الذي جعلنا له عينين، لم يشكرنا على نعمنا، فلا هو اقتحم العقبة، ولا هو فعل شيئا ينجيه من عذابنا"[1]، وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله:"{فَلاَ اقتحم العقبة} يعنى: فلم يشكر تلك الأيادي والنعم بالأعمال الصالحة: من فك الرقاب، وإطعام اليتامى والمساكين.. بل غمط النعم، وكفر بالمنعم"[2]

وفي هذا ما يكشف عما تنطوي عليه العلامة الإشارية المكانية الكامنة في ذكر العقبة من دعوة إلى العمل، والإقدام، والتي ينبغي أن يتحلى بها من يسلك

١– التفسير الوسيط ٣٠/ ٥٧١،٥٧٠

٢– الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل–للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري –ت: الشيخ أحمد عادل عبد الموجود وآخرين– ٣٧٧/٦، ٣٧٨–ط: مكتبة العبيكان–الطبعة الأولى –١٤١٨هـ–١٨٩٨م، وينظر: التفسير الوسيط ٥٧١/٣٠

طريق الخير، ويخوض غماره، فضلًا عن التتابع الذي كأنه يكشف عن مجاهدة النفس، وكشف العناء الذي يصحب السير في طريق الهداية، مما يعد سبيلًا من سبل تسلية الحبيب – ﷺ –، والربط على قلبه، ومن ثم اختيرت (العقبة) باعتبارها طريقا في الجبل يكون محفوفًا بالمخاطر والأهوال التي لا يقدر عليها إلا من شرح الله صدره للإسلام، واختار طريق الهدى والإيمان، يشعر بهذا الإلحاح عليها بالاستفهام بما يتضمنه من تفخيم لشأنها ، وتهويل من أمرها ، وتشويق إلى معرفتها[١]، ولعل هذا وجه الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، بما يحققه من لفت للأذهان، وجذب للنفوس ، ولهذا عبر بـ(الدراية) دون (العلم) ، وذلك لأن الدراية علم يشتمل على المعلوم من جميع وجوهه وذلك أن الفعالة للاشتمال مثل العصابة والعمامة والقلادة، ولذلك جاء أكثر أسماء الصناعات على فعالة نحو القصارة والخياطة ومثل ذلك العبادة لاشتمالها على ما فيها، فالدراية تفيد ما لا يفيده العلم من هذه الوجه، والفعالة أيضا تكون للاستيلاء مثل الخلافة والإمارة فيجوز أن تكون بمعنى الاستيلاء فتفارق العلم من هذه الجهة.[٢]

وفي حذف المضاف والاكتفاء بالمضاف إليه كما ذهب إلى ذلك الشيخ طنطاوي بأن أصل التعبير، (وما أدراك ما اقتحام العقبة) دلالة على عظم هذه العقبة، وعظم ما يترتب عليها، من أعمال تنجي صاحبها، وترفع شأنه، وتحقق بغيته، وهو ما فسره بقوله:﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، والتي عبر فيها عن العتق، أو التخليص بـ(الفك) ليلائم صور التجسيد التي اشتملت عليها السورة بذكر(النجدين) ثم (العقبة)، والتي أكدت بذكر (الرقبة) الملائمة للفك، بما فيها من دلالات مجازية صورها إطلاق

١–التفسير الوسيط ٣٠/٥٧١

٢– الفروق اللغوية ص ٩٢

الجزء وإرادة الكل، وما ترتب عليه من (إطعام) كأنه يستحضر مشاهد الإحسان، وصور الإكرام بما اشتملت عليه من إشاريات زمانية، وشخصية برزت في زي اليتيم ذي المقربة، والمسكين ذي المتربة رغم الشدة والعظم المشار إليه من وراء تنكير (اليوم)، ووسمه بـ(ذي مسغبة)، مما أوجب التعظيم المدلول عليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد (أولئك) بما يحققه من استحضار لهؤلاء المؤمنين، وإظهار لقربهم، وحضورهم، ومشاهدتهم لصور التكريم، فضلًا عما يحمله من تشريف، وتعظيم صوره ذكر الجهة، والنص عليها، ولعل هذا هو سر الاحتفال بالتعبير عن اليمين بـ(الميمنة) بما تحمله من معاني السعادة، والفوز، والنجاة[1]، فضلًا عن الملازمة، والمداومة المشار إليها بذكر (الأصحاب)، والنص عليهم، والتي كأن السياق أراد تقريرها بالمقابلة البارزة من وراء ذكر (أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ)، والتي عدل فيها عن (الشمال) إلى (المشأمة) لتناغي دلالات التأكيد الكامنة في ذكر (الميمنة)

فضلا عما تحمله من اتساع في الدلالة يشمل الجهة من ناحية، والتعب والشقاء من ناحية أخري، وذلك إلى جانب التسفل والدون المفاد من ذكر النار باعتبارها من الإشاريات المكانية التي اعتمد عليها السياق في تقرير المعنى، وتحقيق التسلية، ومن ثم وسمها بكونها عليهم دون لهم، فضلًا عن(الإصاد) القاطع لبوارق الأمل، وتحقيق النجاة.

١- ينظر: المفردات ص٥٥٣

المبحث الرابع

الإشاريات الاجتماعية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى

تعرف الإشاريات الاجتماعية بأنها ألفاظ وتراكيب تشير إلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلمين والمخاطبين من حيث علاقتها سواء أكانت رسمية أو ألفة ومودة.

والعلاقة الرسمية يدخل فيها صيغ التبجيل في مخاطبة من هم أكبر سنًا أو مقامًا من المتكلم، وكذلك مراعاة المسافة الاجتماعية بينهما، وتشمل الألقاب مثل: فخامة الرئيس، والإمام الأكبر، وجلالة الملك، وسمو الأمير، وفضيلة الشيخ، كما تشمل: السيد... والسيدة، ويدخل فيها: حضرتك، وسيادتك، وسعادتك، وجنابك[١]، وظاهر الإشاريات الاجتماعية يشير إلى أن هذا المبحث من المجالات المشتركة بين التداولية، وعلم اللغة الاجتماعي.[٢]

ومما يعد من هذا القبيل في سياق هذه السورة الكريمة موطن الدراسة ذكر الوالد والولد والقسم بهما، وذلك باعتبار أنهما يمثلان أطراف المجتمع اللذان يقوم عليهما التكليف، وترتبط بهما المعاناة، وفي تقديم الوالد على الولد علامة إشارية تكشف عن التبجيل والتكريم باعتباره سبب الوجود، لاسيما وأن أصل المعاناة كأنه قد ترتب عليه باعتبار أن المقصود به سيدنا آدم وذلك بكونه سبب الخروج من الجنة والهبوط إلى الأرض، وإنما عبر بـ(الوالد) دون (الأب) ليشمل الجنسين الذكر والأنثى، وفي هذا ما يحقق العموم الذي تقصد إليه المعاني في مقام التسلية هذا الذي جاء لينزع الآلام التي كانت تعتصر قلبه –صلى الله عليه وسلم– لعدم إيمان قومه، وتنكبهم لطريق الهداية.

١–ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر–ص ٢٥

٢– ينظر: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر–ص ٢٦، وتداولية الإشاريات عند ابن زيدون ص٢٥٢

وتحقيقًا لدرجة التكامل، وإشارة إليها جاء التعبير بالاسم الموصول في (وَمَا وَلَدَ) ليجبر التأخير، وفيه إشارة إلى أن التعظيم يشمل الجنسين، ويظهر في النوعين، وقد أشرت من قبل إلى أن المقصود بقوله:(وما ولد) قد يكون النبي المصطفي – ﷺ –، وذلك باعتباره سبب الرد إلى الجنة، والمحقق له تعظيما وتنويها، ولعل هذا وجه التفخيم المفاد من إيثار التعبير بـ(ما) الموصولة دون (من) في (وما ولد) كما ذهب إلى ذلك الشيخ طنطاوي، وذلك بحمله على الإبهام المحقق لذلك.[١]

ومن الإشاريات الاجتماعية التي اشتملت عليها السورة ذكر(الإنسان) والنص عليه، وذلك لأنه بما يحمله من تعميم بدلالات الجنسية التي أشار إليها الشيخ طنطاوي[٢]، كأنه يكشف عن عظم المعاناة التي لا يكاد يسلم ، أو ينجو منها أحد، وهو ما تظهره عناصر التوكيد التي كأنها نزَّلت الحبيب المصطفى– صلى الله عليه وسلم–، بسبب حزنه وألمه منزلة من ينكر ذلك، أو يشك فيه، وهو ما يشير إليه التعبير بـ(الخلق) الدال على أن الكبد والمشقة هذه كأنها مرتبطة بأصل الخليقة، وقائمة بها مما يكشف عن سر التقديم في ذكر(الوالد)، فضلًا عما تحمله العظمة المفادة من الإضافة إلى ضمير(نا) العائد على المولى –سبحانه وتعالى– من تأكيد لأن المعاناة هذه كائنة ممن يريد منهم الهداية ، ويدعوهم إليها بإرسال الرسل، وتنزيل الكتب، وكأنها وسيلة من وسائل غفر الذنوب، وستر العيوب، ورفع الدرجات، وإقالة العثرات، ولعل هذا وجه إيثار التعبير بـ(الإنسان) دون (الناس) وذلك لشموله الروح، والجسد، وفي هذا ما يؤكد دلالات العموم التي تقصد إليها المعاني من وراء غايات التسلية المفعم بها سياق

١– التفسير الوسيط ٥٦٥/٣٠

٢– ينظر التفسير الوسيط ٥٦٦/٣٠

هذه السورة، والتي اهتمت ببيان الكذب والبهتان، والزور والبطلان الذي يتحلى به هذا الإنسان، والذي يلوح من الحسبان الذي تحتفل السورة الكريمة بذكره، والنص عليه، بما يحمله من توبيخ وإنكار، وزجر وعصيان يصوره السياق بقوله:" يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا" الجامع بين العصيان القولي والفعلي، ومن ثم احتفل السياق بتعديد النعم والمنن التي تقتضي التأمل والتدبر الذي يدعو إلى الشكر والحمد، والإنعام والإحسان، والصلة والإكرام المتمثل في العتق والإطعام باعتباره علامة إشارية اجتماعية ترقى بالمجتمع، وتحقق له الصلاح والفلاح، وهو ما صورته السورة الكريمة بتفسير العقبة المأمور باقتحامها بكونها بفك الرقاب، وإطعام العباد المتمثلة في اليتيم ذي المقربة، والمسكين ذي المتربة، فالتعبير بـ(الفك) كما سبق كأنه جاء ليلائم التجسيد الذي اشتملت عليه السورة، والمتمثل في التعبير بـ(الكبد)، و(النجدين)، و(العقبة)، فضلًا عن أنه يصور المعاناة التي يعيش فيها من يقع في ربقة الرق التي تجعله كالدابة، لا يستطيع فكاكا، ولا يجد مناصا للتخلص مما هو فيه مما يتنافى ما التكريم الذي مُنح لابن آدم، ووسم به، ولهذا آثر السياق التعبير بالمجاز المرسل بذكر الجزء، وإرادة الكل لتحقيقه لمعاني القيد في الرقبة باعتبارها موطن العزة والذلة بالرفع والخفض.

وفي إيثار السياق لليتيم في الإطعام علامة إشارية اجتماعية تكشف عن عظم منزلة اليتيم، وما يترتب على رعايته، والوقوف بجانبه، ومن ثم نكره ليشمل اليتيم في كل مكان، وفي كل زمان متجاوزًا بذلك الأسباب الخاصة التي دعت إلى النزول، وارتبطت به، وذلك باعتباره تكوين اجتماعي كائن في كل زمان ومكان، وأشعر أن ذكر اليتيم والنص عليه بما يحمله من تعظيم، بأصل دلالته على كل شيء فرد يعز نظيره[١]، لاسيما ذي القربي ما هو إلا سبيل من سبل

١-ينظر: الكليات ص ٩٧٨

التسلية للحبيب المصطفي- ﷺ - وبيان لعظم فضله، ومنزلته عند الله -تعالى- ، وذلك بكونه سبب النجاة، وطريق الفلاح، ومن ثم نكره ليشمل اليتيم في كل وقت، وقيده بالوصف (ذا مقربة) باعتبار أن الفضل فيها أقوى، والثواب عليها أجل، كما أشار إلى ذلك الشيخ طنطاوي[1]، ولعل العناية هي التي تكمن وراء الإشباع الذي يلوح من ذكر الوصف(ذا) والتعبير بصيغة المفعلة في(مقربة) والتي جسدت الصلة هذه، وكأنها صفة تلازم اليتيم، وتعاضده، وتسانده وكأنها دعوة لأهل الشرك الذين ناصبوه العداء، وصدوا عن دعوته في كل صباح ومساء، حقدًا وغلًا، كفرًا وحسدًا، ومن ثم رتب عليه المسكين خاصة، ووسمه بـ (ذا متربة) والتي جسدت الحاجة وكأنها تصحبه، وتسير معه، وكأن في هذا تذكير بالحالين الماضية والحالية التي كانت سببًا في الصد، وسبيلًا للكفر والعناد والاستكبار البارز من قوله-تعالى-:﴿ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ * يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا * أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾، لاسيما وأن النبي - ﷺ - طلب المسكنة ولم يطلب الفقر، فضلًا عن كون المسكين أسوأ حالًا من الفقير، لصدور السؤال منه دون الفقير[2] ، ومن ثم وسمه بـ(ذا متربة) المكنى بها عن شدة الحاجة نتيجة التصاقه بالتراب، هذا فضلًا عما تحمله من تذكير بأصل الخلقة التي كأنها تدعو إلى الطاعة، والخضوع، والاستسلام الذي يدعو إليه الإسلام، ويحث عليه من وراء ترتيب التواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة على الإيمان، المنافي في أصل وضعه للكبر، والبطر، والعناد الذي تصوره السورة الكريمة، وكان سببًا في التسلية.

١- التفسير الوسيط ٣٠/٥٧٣

٢-ينظر: معجم الفروق اللغوية ص ٤١٠

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه أجمعين،

وبعد

فمن خلال دراستي للإشاريات في سورة البلد ودورها في بناء المعنى في بحثي هذا الموسوم بـ (الإشاريات في سورة البلد ودورها في بناء المعنى دراسة بلاغية في ضوء التفسير الوسيط للشيخ محمد سيد طنطاوي المتوفى"٢٠١٠م") استطعت أن أقف على بعض النتائج والتوصيات التالية.

أولًا: كشفت الدراسة أن للإشاريات في سورة البلد دورها في تحقيق غايات الدعوة الإسلامية، وأنها أسهمت بدورها في تقرير المعاني، وتقريبها من النفوس المنكرة، فضلًا عن المؤمنة.

ثانيًا: تبين من خلال الدراسة أن الإشاريات الشخصية كانت أكثر بروزا في سورة البلد من غيرها من الإشاريات الأخرى؛ وذلك لقيامها على الضمائر، فضلًا عن الأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة التي تجذب الأذهان، وتهيئ النفوس لتقبُّل ما يوجه إليها، ويلقى عليها.

ثالثًا: تبين من خلال الدراسة أن محاور التداولية الحديثة ليست بمنأى عن تراثنا العربي، والإسلامي، وأنها تدور في فلكه، بل هي في أصلها تستقي منه أفكارها، ومناهجها.

وبعد

فإن الدراسة توصي بتتبع محاور التداولية الأخرى وتطبيقها على سور القرآن الكريم، وفصيح الكلام شعرًا ونثرًا لتكشف عن دورها في معالجة القضايا الأدبية، والوصول إلى الغايات الأسلوبية، رغبة في ربط المدارس النقدية الحديثة بتراثنا العربي.

فهرس المصادر والمراجع

١- آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر-د. محمود أحمد نحلة-ط: دار المعرفة الجامعية- ٢٠٠٢م.

٢- استراتيجيات الخطاب -مقاربة لغوية تداولية- عبد الهادي بن ظافر الشهري - ط: دار الكتاب الجديد المتحدة-بيروت -لبنان- ٢٠٠٤م

٣- الأسس الإبسمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه-لإدريس مقبول- عالم الكتاب الحديث-أربد- الأردن- الطبعة الأولى-٢٠٠٦م.

٤- أسس لسانيات النص- ما رغوت هينان، وفولفنغ هاينمان- ترجمة: موفق محمد المصلح- دار الشؤون الثقافية- بغداد-الطبعة الأولى.

٥- تجديد المنهج في تقويم التراث-د. طه عبد الرحمن -ط: المركز الثقافي العربي-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية.

٦- تداولية الإشاريات عند ابن زيدون (قصيدة" أثرت هزبر الشرى إذ ربض " أنموذجا - د. حنان بنت علي عسيري-ط: مجلة كلية دار العلوم-العدد ١٤١-٢٠٢٢م

٧- التداولية أصولها واتجاهاتها - جواد ختام -ط: دار كنوز المعرفة-عمان - الطبعة الأولى- ١٤٣٧هـ-٢٠٠٦م

٨- التداولية عند علماء العرب - د. مسعود صحراوي - ط: دار الطليعة - بيروت-لبنان- الطبعة الأولى-٢٠٠٥م.

٩- التداولية في الدراسات النحوية-د. عبد الله جاد الكريم- ط: مكتبة الآداب- القاهرة- ٢٠١٤م.

١٠-التداولية نشأة المفاهيم والتصورات-أ. مريم مزايتي - ط: مجلة إشكالات في اللغة والأدب- العدد الثامن-الجزائر- ٢٠١٥م.

١١-تفسير الشعراوي-ط: أخبار اليوم - قطاع الثقافة والكتب والمكتبات- ١٩٩١م

١٢-تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن) -لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري-ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي- ط: دار هجر- القاهرة- الطبعة الأولى – ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٣-تفسير القرآن الكريم-للأستاذ الإمام الشيخ: محمد عبده-ط: مطبعة مصر- الطبعة الثالثة-١٣٤١هـ.

١٤-التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج-د. وهبة الزحيلي- ط: دار الفكر-دمشق- الطبعة العاشرة- ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

١٥-التفسير الوسيط للقرآن الكريم -لفضيلة الأستاذ الدكتور: محمد سيد طنطاوي – ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

١٦-دراسات لغوية وتطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة- تأليف: د. سعيد حسن بحيري -ط: مكتبة الآداب- القاهرة- مصر- الطبعة الأولى- ٢٠٠٥م.

١٧-الفروق اللغوية-للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري-ت: محمد إبراهيم سليم- ط: دار العلم والثقافة- القاهرة.

١٨-الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التنزيل- للعلامة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري -ت: الشيخ أحمد عادل عبد الموجود وآخرين-ط: مكتبة العبيكان-الطبعة الأولى – ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٩-الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية -لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي – ت: د. عدنان درويش، ومحمد المصري- ط: مؤسسة الرسالة-الطبعة الثانية- ١٤١٩هـ -١٩٩٨م

٢٠-لسان العرب-تأليف: محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري- ط: دار صادر-بيروت-الطبعة الأولى.

٢١-محاضرات في لسانيات النص -د. جميل حمداوي – ط: الألوكة.

٢٢-مدخل إلى اللسانيات التداولية-ترجمة: محمد يحياتين-ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ١٩٩٢م.
٢٣-مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور تأليف: الحافظ المفسر المؤرخ برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي -ت: د. عبد السميع محمد أحمد حسنين -ط: مكتبة المعارف- الرياض- الطبعة الأولى- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م
٢٤-معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتاب أبى هلال العسكري وجزءًا من كتاب السيد نور الدين الجزائري -تنظيم: بيت الله بيات -ط: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم.
٢٥-معجم مقاييس اللغة- لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا- ت: عبد السلام محمد هارون -ط: دار الفكر - بيروت -١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٢٦-مفهوم التداولية من المنشأ الغربي إلى المحضن العربي-قراءة في المصطلح والمفهوم- د. عمر بوقمرة -ط: مجلة المدونة-٢٠١٤م
٢٧-مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب-تأليف: د. محمد محمد يونس علي- ط: دار الكتاب الجديد المتحدة- بنغازي- ليبيا- الطبعة الأولى-٢٠٠٤م.
٢٨-النظرية البراجماتيه اللسانية (التداولية) دراسة المفاهيم والنشأة والمبادئ ـ د. محمود عكاشة -ط: مكتبة الآداب- القاهرة-٢٠١٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١٩٨٧
التمهيد	١٩٨٩
توطئة	٢٠٠١
المبحث الأول: الإشاريات الشخصية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.	٢٠٠٢
المبحث الثاني: الإشاريات الزمانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.	٢٠١٤
المبحث الثالث: الإشاريات المكانية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.	٢٠٢١
المبحث الرابع: الإشاريات الاجتماعية في سورة البلد ودورها في بناء المعنى.	٢٠٢٨
الخاتمة	٢٠٣٢
فهرس المصادر والمراجع	٢٠٣٣
فهرس الموضوعات	٢٠٣٦